BOBST LIBRARY
3 1142 01474 3523

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

6628
Gibran, Khalil.
"
X3
8

جبران خليل جبران

/ ʿArāʾis al-murūj /

عرائس المروج

مكتبة صادر
بيروت

PJ
7826
.I2
A9
1949
c.1

الحقوق محفوظة لمكتبة صادر

الطبعة الأولى

بمطبعة المناهل

٥ – ١٩٤٩

JUL 11 1985

رماد الاجيال والنار الخالدة

١

توطئة

(في خريف ١١٦ قبل الميلاد)

سكن الليل ورقدت الحياة في مدينة الشمس[١] وأطفئت السرج في المنازل المنتشرة حول الهياكل العظيمة القائمة بين اشجار الزيتون والغار ، وطلع القمر فانسكبت اشعته على بياض الاعمدة الرخامية المنتصبة كالجبابرة تخفر في هدوء الليل مذابح الآلهة ، وتنظر تيهاً واعجاباً نحو بروج لبنان الجالسة في الوعر على جبهات الروابي البعيدة .

في تلك الساعة المملوءة بسحر الهدوء ، الموحدة بين ارواح النيام واحلام اللانهاية ، جاء ناثان ابن الكاهن ودخل هيكل

---

١ هي بعلبك اي مدينة بعل اله الشمس وقد دعاها الاقدمون مدينة الشمس (هليوبوليس) لانها بنيت لعبادة هذا الاله ، وقد اتفق المؤرخون على انها كانت اجمل مدينة في سوريا . اما الخرائب الباقية الى يومنا هذا فأكثرها من بناء الرومانيين بعد فتحهم سوريا .

عشتروت[1] حاملاً مشعلاً ، وبيد مرتجفة انار المسارج واوقد المباخر فتصاعدت روائح المرّ واللبان ، ووشحت تمثال المعبودة بنقاب لطيف يشابه برقع الأماني المحيط بالقلب البشري ، ثم ركع امام المذبح المصفّح برقوق العاج والذهب ورفع يديه ونظر نحو العلاء ومن عينيه الدموع تستدرّ الدموع ، وبصوت تخنقه الغصّات الاليمة وتقطعه اللوعة القاسية صرخ قائلاً : رحماكِ يا عشتروت العظيمة — رحماك يا ربّة الحبّ والجمال، ترأفي بي وازيلي يد الموت عن حبيبتي التي اختارتها نفسي بمشيئتك . . . لقد نبت اعاصير الاطباء ومساحيقهم ، وباطلاً ضاعت تعازيم الكهّان والعرّافين ، ولم يبق لي غير اسمك المقدّس عوناً ومساعداً ، فاستجيبي تضرعاتي ، وانظري انسحاق قلبي وتوجّع عواطفي ، وأبقي شطر نفسي حيّاً بجانبي ، لنفرح بأسرار محبتك ونسعد بجمال الشبيبة المعلنة خنايا مجدك . من هذه الاعماق اصرخ اليكِ يا عشتروت المقدسة . من وراء ظلمة هذا الليل استجير بحنانك . فاسمعيني انا عبدك ناثان ابن الكاهن حيرام الذي وقف عمره على خدمة مذبحك — قد احببت صبيّة

---

١ هي ربة عظيمة عند قدماء الفينيقيين عبدوها في صور وصيدا وجبيل وبعلبك، وبعض صفاتها قولهم : « موقدة شعلة الحياة وحارسة الشبيبة » وقد اخذ اليونان عادتها من الفينيقيين ودعوها افروديت ربة الحب والجمال ، والرومان يدعونها فينيس .

من بين الصبايا واتخذتها رفيقة فجسدتنا عرائس الجان ونفثنَ في جسدها اللطيف لمسات علّة غريبة ، ثم بعثنَ رسول المنايا ليقودها الى مغاورهنّ السحريّة ، وها هو الآن رابض بقرب مضجعها ، يزمجر كالنمر الجائع ، محيّماً عليها بأجنحته السوداء ، مادّاً مقابضه الحشنة ليغتالها من بين ضلوعي[1] . من اجل ذلك جئت اليك متذلّلاً ، فارحمني وابقِ لي زهرة لم تفرح بعد بجمال صيف الحياة ، وطائراً لم يكمل تغريدة مسرّته لمجيء فجر الشبيبة . انقذها من بين اظفار الموت فنبتهج بأغاني مدائحك ، مقدّمين المحروقات لمجد اسمك ، ناحرين الضحايا على مذبحك ، مالئين بالخمر القديم والزيت المطيّب آنية خزائنك ، فارشين بالورود والياسمين رواق هيكلك ، محرقين البخور والعود الذكي الرائحة امام تمثالك . خلّصنا يا ربّة المعجزات ودعي المحبة تغلب الموت ، فأنت ربّة الموت والمحبة .

وسكت دقيقة كانت فيها لوعته تسيل دموعاً وتتصاعد تنهيداً . ثم عاد فقال : « اواه ! لقد تضعضعت احلامي يا عشتروت المقدسة وذابت حشاشتي ومات قلبي في داخلي والتهبت

---

١ كانت العرب في الجاهلية تقول ان الجنية اذا تعشقت فتى من الانس منعته من الزواج ، وان قتل سحرت عروسته او اماتتها ، وهذه الاعتقادات الشعبية ما برحت حية في بعض قرى لبنان .

دموعي في عيني ، فأحيبني بالرأفة وأبقي لي حبيبتي . » ودخل اذ ذاك عبد من عبيده واقترب منه ببطء وهمس في اذنه هذه الكلمات : « لقد فتحت عينيها يا سيدي ونظرت حول مضجعها فلم ترَك ثم نادتك بلجاجة فجئت لأدعوك اليها . »

فقام ناثان ومشى مسرعاً والعبد يتبعه . ولما بلغ صرحه دخل حجرة العليلة وانحنى فوق سريرها آخذاً يدها النحيلة بين يديه مقبّلاً شفتيها مراراً كأنه يريد ان ينفخ في جسدها السقيم حياة جديدة من حياته ، فحوّلت نحوه وجهها الغارق بين المساند الحريريّة وفتحت اجفانها قليلاً ، وظهر على شفتيها خيال ابتسامة هي بقيّة الحياة في جسدها اللطيف ، هي آخر اشعة من نفسها المودّعة — هي صدى نداء القلب المتسارع نحو الوقوف . ثم قالت ومقاطع صوتها تشابه انفاس طفل الفقيرة الجائع : « قد نادتني الآلهة يا عريس نفسي ، وجاء الموت ليفصلني عنك ، فلا تجزع لأن مشيئة الآلهة مقدسة ومطالب الموت عادلة . انا ذاهبة الآن وكأسا الحبّ والشبيبة ما برحتا طافحتين في ايدينا ، ومسالك الحياة الجميلة ما زالت منبسطة امامنا . انا راحلة يا حبيبي الى مسارح الأرواح وسوف اعود الى هذا العالم لأن عشتروت العظيمة ترجع الى هذه الحياة ارواح المحبين الذين ذهبوا الى الابدية قبل ان يتمتعوا بلذّات الحب وغبطة

الشبيبة[1] . سوف تلتقي يا ناثان ونشرب معاً ندى الصباح من كؤوس النرجس ونفرح مع عصافير الحقل بأشعة الشمس . الى اللقاء يا حبيبي . »

وانخفض صوتها وبقيت شفتاها ترتجفان مثل زهرة اقاح ذابلة امام نسمات الفجر ، فضمّها حبيبها وبلل عنقها بالعبرات ، ولمّا قرّب شفتيه من ثغرها وجده بارداً كالثلج ، فصرخ صراخاً هائلاً ومزّق ثوبه وارتمى على جثّتها الهامدة وروحه المتوجعة تراوح بين لجج الحياة وهاوية الموت .

في هدوء ذلك الليل ارتجفت اجفان الراقدين وجزعت نساء الحي وذعرت ارواح الاطفال اذ تبطّنت ملابس الدجى بنواح موجع وبكاء مرّ وعويل أليم متصاعد من جوانب قصر كاهن عشتروت .

ولما جاء الصباح طلب القوم ناثان ليعزّوه ويؤاسوه في مصيبته فلم يجدوه .

وبعد ايام جاءت قافلة من المشرق اخبر زعيمها بأنه رأى

---

١ قال في الاسلام (س) : « وكنتم امواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون . » وقال بوذا الهندي : « كنا بالامس في هذه الحياة وقد جئنا الآن وسوف نعود حتى نصير كاملين مثل الآلهة . »

فاثان تائهاً في البرية البعيدة هائماً مع اسراب الغزلان .

***

مرّت الاجيال ساحقة بأقدامها الخفيّة اعمال الاجيال ، وبعدت الآلهة عن البلاد وحلّ مكانها آلهة غضوب يلذّ لها الهدم ويبهجها التخريب ، فدُكّت هياكل مدينة الشمس الفخمة وتقوّضت قصورها الجميلة ويبست حدائقها النضرة ، وأجدبت حقولها الخصيبة ، ولم يبقَ في تلك البقعة غير طلل بال يعيد للذاكرة اشباح الامس فيؤلمها ، ويرجع للنفس صدى تهاليل المجد القديم فيحزنها .

ولكن الاجيال التي تمرّ وتسحق اعمال الانسان لا تفني احلامه ، ولا تضعف عواطفه .

فالاحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلّي الخالد ، وقد تتوارى حيناً وتهجع آونة متشبّهة بالشمس عند مجيء الليل وبالقمر عند مجيء الصباح .

٢

في ربيع سنة ١٨٩٠ لمجيء يسوع الناصري

توارى النهار واضمحلّ النور ولمّت الشمس وشاحها عن سهول بعلبك فعاد علي الحسيني[١] امام قطيعه نحو خرائب الهيكل، وهناك جلس بين الاعمدة الساقطة كأنها أضلع جندي متروك مزّقتها الهجاء وجرّدتها العناصر، فربضت اغنامه حوله مستأمنة بأنغام شبّابته.

انتصف الليل، وألقت السماء بذور الغد في أعماق ظلمته، فتعبت اجفان علي من اشباح اليقظة وكلّت عاقلته من مرور مواكب الخيالات السائرة بسكينة مخيفة بين الجدران المهدومة، فاتكأ على زنده، وافترب النعاس ولامس حواسه بأطراف ثنايا نقابه مثلما يلامس الضباب اللطيف وجه البحيرة الهادئة، فنسي ذاته المقتبسة والتقى بذاته المعنويّة الخفية المفعمة بالاحلام المترفّعة عن شرائع الانسان وتعاليمه، واتسعت دوائر الرؤيا امام عينيه، وانبسطت له خفايا الاسرار، فانفردت نفسه عن موكب الزمن المتسارع نحو اللاّشيء

---

١ الحسينيون قبيلة من العرب تسكن الخيام في سهول بعلبك في ايامنا هذه.

ووقفت وحدها امام الافكار المتناسقة والخواطر المتسابقة ، ولأول مرّة في حياته عرف او كاد يعرف اسباب المجاعة الروحية الملاحقة شبيبته . تلك المجاعة التي توحّد بين حلاوة الحياة ومرارتها . ذلك الظمأ الجامع بين تأوّه الحنين وسكينة الاستكفاء . ذلك الشوق الذي لا تزيله ابجاد العالم ولا تثنيه مجاري العمر . لاول مرة في حياته شعر علي الحسيني بعاطفة غريبة ايقظتها خرائب الهيكل . عاطفة رقيقة هي الذكرى بمنزلة البخور من المجامر . عاطفة سحرية قد انعكفت على حواسه انعكاف انامل الموسيقي على صفوف الاوتار . عاطفة جديدة قد انبثقت من اللاشيء او من كل شيء ، ونمت وتدرّجت حتى عانقت كليّته المعنوية وملأت نفسه بشغف مدنف بلطفه وتوجع مستعذب بمرارته مستطيب بقساوته . عاطفة تولّدت من خلايا دقيقة واحدة مفعمة بالنعاس ، ومن دقيقة واحدة تتولد رسوم الاجيال مثلما تتناسل الامم من نطفة واحدة .

نظر علي نحو الهيكل المهدوم وقد تبدّل النعاس بيقظة روحية فظهرت بقايا المذبح المخدّشة وانضحت اماكن الاعمدة المرمّية واسس الجدران المتداعية فجمدت عيناه وخفق قلبه ، ومثل ضرير عاد النور الى عينيه فجأة فصار يرى ويفكر

ويتأمّل – يفكر ويتأمل – ومن تموجات التفكير ودوائر التأمل تولدت في نفسه اشباح الذكرى فتذكر – تذكر تلك الاعمدة منتصبة بفخر وعظمة . تذكر المسارج والمباخر الفضيّة محيطة بتمثال معبودة مهابة . تذكر الكهّان الوقورين يقدمون الضحايا امام مذبح مصفّح بالعاج والذهب . تذكر الصبايا الخاربات الدفوف والفتيان المترنمين بمدائح ربّة الحبّ والجمال . تذكر ورأى هذه الصور منتفخة لبصيرته المتكهربة وشعر بتأثيرات غوامضها تحرّك سواكن اعماقه . ولكن الذكرى لا تعيد غير اشباح الاجسام التي نراها فيما غبر من اعمارنا ولا يرجع الى مسامعنا الاّ صدى الاصوات التي وعتها آذاننا . فأيّة علاقة بين هذه التذكارات السحرية وماضي حياة فتى ولد بين المضارب وصرف ربيع عمره يرعى قطيعاً من الغنم في البرية ؟

قام علي ومشى بين الحجارة المنقوّضة وتذكاراته البعيدة تزيح اغشية النسيان عن مخيّلته مثلما تزيل الصبيّة نسيج العنكبوت عن بلّور مرآتها . حتى اذا ما بلغ صدر الهيكل وقف كأنّ في الارض جاذباً يتمسك بقدميه ، فنظر واذا به امام تمثال مهشّم ملقى على الحضيض ، فركع بجانبه على غير هدى وعواطفه تتدفّق في احشائه مثلما يتسارع نزيف الدماء

من جوانب الكلوم البليغة ، ونبضات قلبه تتكاثر وتتهامل مثل امواج البحر المتصاعدة المنخفضة . فخشع بصره وتأوّه بمرارة وبكى بكاءً اليماً لأنه شعر بوحدة جارحة وبعاد متلف فاصل بين روحه وروح جميلة كانت بقربه قبل مجيئه الى هذه الحياة .

شعر بأن جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متّقدة فصلها الله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر .

شعر بخفيف أجنحة لطيفة ترفرف بين اضلعه الملتهبة وحول لفائف دماغه المنحلّة .

شعر بالحبّ القوي العظيم يشمل قلبه ويتملك انفاسه ، ذلك الحب الذي يبيح مكنونات النفس للنفس ويفصل بتفاعيله بين العقل وعالم المقاييس والكمية ، ذلك الحب الذي نسمعه متكلّماً عندما تخرس ألسنة الحياة ونراه منتصباً كعمود النور عندما تحجب الظلمة كل الاشياء . ذلك الحب ، ذلك الاله قد هبط في تلك الساعة الهادئة على نفس علي الحسيني وايقظ فيها عواطف حلوة ومرة مثلما تستنبت الشمس الزهور بجانب الاشواك .

ولكن ما هذا الحب ، ومن اين اتى ، وماذا يريد من فتى رابض مع قطيعه بين تلك الهياكل الرميمة ؟ ما هذه الحمرة السائلة في كبد لم تحرّكه قط لواحظ الصبايا؟ وما هذه الاغنيّة

السماوية المتموّجة في مسامع بدوي لم يطربه بعد شدو النساء؟

ما هذا الحب ومن اين أتى ، وماذا يريد من علي المشغول عن العالم بأغنامه وشبّابته ؟ هل هي نواة ألقتها محاسن بدوية بين أعشار قلبه على غير معرفة من حواسه ، ام هو شعاع كان محتجباً بالضباب وقد ظهر الآن لينير خلايا نفسه ؟ هل هو حلم سعى في سكينة الليل ليسخر بعواطفه ، ام هي حقيقة كانت منذ الازل وستبقى الى آخر الدهر ؟

اغمض عليّ اجفانه المغلفة بالدموع ومدّ يديه كالمتسوّل المستعطف وارتعشت روحه في داخله ومن ارتعاشاتها المتواصلة انبثقت الزفرات المتقطّعة المؤلفة بين تذلّل الشكوى وحرقة الشوق ، وبصوت لا يميّزه عن التنهد غير رنات الالفاظ الضعيفة هتف قائلا :

« من انتِ ايتها القريبة من قلبي ، البعيدة عن ناظري ، الفاصلة بيني وبيني ، الموثقة حاضري بأزمنة بعيدة منسيّة ، أطيف حوريّة جاءت من عالم الخلود لتبيّن لي بطل الحياة وضعف البشر ام روح مليكة الجان تصاعدت من شقوق الأرض لتسترق مني عاقلتي وتجعلني سخريّة بين فتيان عشيرتي ؟ من انتِ وما هذا الفتون المميت المحيي القابض على قلبي ؟ وما هذه المشاعر المائلة جوانحي نوراً وناراً ؟ ومن انا وما هذه

الذات الجديدة التي ادعوها (انا) وهي غريبة عني ؟ هل تجرّعت ماء الحياة مع دقائق الاثير فصرت ملاكاً ارى واسمع خفايا الاسرار ، ام هي خمر وساوس سكرت بها فتعاميت عن حقائق المعقولات ؟ »

وسكت دقيقة وقد نمت عواطفه وتسامت روحه فقال : « يا من تبينها النفس وتدنيها ويحجبها الليل ويقصيها — اينها الروح الجميلة الحائمة في فضاء احلامي ، قد ايقظتِ في باطني عواطف كانت نائمة مثل بذور الزهور المختبئة تحت اطباق الثلج ، ومررتِ كالنسيم الحامل انفاس الحقول ولامست حواسي فاهتزّت واضطربت كأوراق الاشجار ! دعيني اراكِ ان كنتِ لابسة من المادة ثوباً . او مري النوم ان يغمض اجفاني فأراكِ بالمنام ان كنتِ معتوقة من التراب . دعيني ألمسك . اسمعيني صوتك . مزّقي هذا النقاب الحاجب كلّيتي واهدمي هذا البناء الساتر ألوهيّتي وهبيني جناحاً فأطير وراءك الى مسارح المثل الأعلى ان كنت من سكّانها او لامسي عيني بالسحر فأتبعك الى مكامن الجان ان كنت من عرائسها . ضعي يدك الحقيقية على قلبي وامتلكيني ان كنتُ حريّاً باتّباعك . »

كان علي يحس في آذان الدجى كلماته المتناسخة عن صدى

نغمة متمايلة في اعماق صدره وبين ناظره ومحيطه تنسل اشباح الليل كأنها ابخرة متولدة من مدامعه السخينة ، وعلى جدران الهياكل تتمثل له صور سحرية بألوان قوس قزح .

كذا مرّت ساعة وهو فرح بدموعه ، مغتبط بلوعته ، سامع نبضات قلبه ، ناظر الى ما وراء الاشياء كأنه يرى رسوم هذه الحياة تضمحلّ ببطء ويحلّ مكانها حلم غريب بمحاسنه هائل بهواجسه ، ومثل نبي يتأمل بنجوم السماء مترقباً هبوط الوحي صار ينتظر مآتي الدقائق وتنهيداته المسرعة توقف انفاسه الهادئة ، ونفسه تتركه وتسبح حوله ثم تعود اليه كأنها تبحث بين تلك الخرائب عن ضائع عزيز .

***

لاح الفجر وارتجفت السكينة لمرور نسماته وسال النور البنفسجي بين دقائق الاثير ، وابتسم الفضاء ابتسامة نائح لاح له في الحلم طيف حبيبته ، فظهرت العصافير من شقوق جدران الخرائب ، وصارت تنتقل بين تلك الاعمدة وترنّم وتتناجى متنبئة بمآتي النهار ، فانتصب علي واضعاً يده على جبهته الملتهبة ونظر حوله بطرف جامد ، ومثل آدم عندما فتحت عينيه نفخة الله صار ينظر مستغرباً كل ما يراه . ثم اقترب من نعاجه وناداها فقامت وانتفضت ومشت وراءه بهدوء نحو المروج

الخضراء . سار علي امام قطيعه وعيناه الكبيرتان محدّقتان بالفضاء الصافي وعواطفه المنصرفة عن المحسوسات تبيّن له غوامض الوجود ومستتراته وتريه ما غبر من الاجيال وما بقي منها بلمحة واحدة ، وبلمحة واحدة تنسيه كل ذلك وتعيد اليه الشوق والحنين، فيجد ذاته منحجباً عن روح روحه انحجاب العين عن النور ، فيتنهّد ومع كل تنهيدة تنسلخ شعلة من فؤاده المتقد .

بلغ الجدول المذيع بخريره سرائر الحقول فجلس على ضفته تحت اغصان الصفصاف المتدلية الى المياه كأنها تروم امتصاص عذوبتها ، وانثنت نعاجه ترتعي الاعشاب وندى الصباح يتلمع على بياض صوفها ، ولم تمرّ دقيقة حتى شعر بتسارع نبضات قلبه وتضاعف اهتزازات روحه ، ومثل راقد أجفلته أشعة الشمس تحرّك وتلفّت حوله فرأى صبيّة قد ظهرت من بين الاشجار تحمل جرّة على كتفها وتتقدم على مهل نحو الغدير وقد بلّل الندى قدميها العاريتين .

ولمّا بلغت حافة الجدول وانحنت لتملأ جرّتها التفتت نحو الحافة المقابلة فالتقت عيناها بعيني علي فشهقت ورمت بالجرّة ثم تراجعت قليلاً الى الوراء وشخصت به شخوص ضائع وجد من يعرفه . . . مرّت دقيقة كانت ثوانيها مثل مصابيح

تهدي قلبيهما الى قلبيهما مبتدعة من السكينة انغاماً غريبة تعيد الى نفسيهما صدى تذكارات مبهمة وتبيّن الواحد منهما للآخر في غير ذلك المكان محاطاً بصور واشباح بعيدة عن ذلك الجدول وتلك الاشجار، فكان كل منهما ينظر الى الآخر نظرة الاستعطاف ويتفرّس فيه مستلطفاً ملامحه مصغياً لتنهداته بكل ما في عواطفه من المسامع ، مناجياً اياه بكل ما في نفسه من الالسنة ، حتى اذا ما تمّ التفاهم وتكامل التعارف بين الروحين عبر على الجدول مجذوباً بقوّة خفيّة واقترب من الصبيّة وعانقها وقبّل شفتيها وقبّل عنقها وقبّل عينيها فلم تبدِ حراكاً بين ذراعيه كأنّ لذّة العناق قد انتزعت منها ارادتها ، ورقّة الملامسة قد اخذت منها قواها ، فاستسلمت استسلام انفاس الياسمين لتموجات الهواء ، وألقت رأسها على صدره كمتعب وجد راحة . وتنهدت تنهيدة عميقة تشير الى حدوث انبساط في فؤاد منقبض وتعلن ثورات جوانح كانت راقدة فأفاقت ، ثم رفعت رأسها ونظرت الى عينيه نظرة من يستصغر الكلام المتعارف بين البشر بجانب السكينة – لغة الارواح – نظرة من لا يرضى بأن يكون الحبّ روحاً في اجساد من الالفاظ . مشى الحبيبان بين اشجار الصفصاف ووحدانية كليهما لسان ناطق بتوحيدهما، ومسمع منصت لوحي

المحبة ، وعين مبصرة مجد السعادة ، تتبعهما الخراف مرتعية رؤوس الاعشاب والزهور ، وتقابلهما العصافير من كل ناحية مرتلة اغاني السحر !

ولما بلغا طرف الوادي ، وكانت الشمس قد طلعت وألقت على تلك الروابي رداءً مذهباً، جلسا بقرب صخرة يحتمي البنفسج بظلها. وبعد هنيهة نظرت الصبيّة في سواد عيني علي وقد تلاعب النسيم بشعرها كأنّ النسيم شفاه خفيّة تروم تقبيلها ، وشعرت بأنامل سحريّة تداعب لسانها وشفتيها رغم ارادتها ، فقالت وفي صوتها حلاوة جارحة :

– قد اعادت عشتروت روحينا الى هذه الحياة كيلا نحترم ملذات الحب ، ومجد الشبيبة يا حبيبي !

فأغمض علي أجفانه وقد استحضرت موسيقى كلماتها رسوم حلم طالما رآه في نومه ، وشعر بأجنحة غير منظورة قد حملته من ذلك المكان واوقفته في حجرة غريبة الشكل بجانب سرير ملقى عليه جثمان امرأة جميلة اخذ الموت بهاءها وحرارة شفتيها ، فصرخ ملتاعاً من هول المشهد ثم فتح اجفانه فوجد تلك الصبيّة جالسة بجانبه وعلى شفتيها ابتسامة محبة وفي لحظها اشعة الحياة ، فأشرق وجهه وانتعشت روحه وتضعضعت خيالات رؤياه ونسي الماضي ومآتيه . . .

تعانق الحبيبان وشربا من خمرة القبل حتى سكرا ونام كل منهما ملتفاً بذراعي الآخر الى ان مال الظل وايقظتهما حرارة الشمس .

مرتا البانية[1]

١

مات والدها وهي في المهد ، وماتت امها قبل بلوغها العاشرة ، فتُركت يتيمة في بيت جارٍ فقير يعيش مع رفيقته وصغاره من بذور الارض وثمارها في تلك المزرعة المنفردة بين اودية لبنان الجميلة .

مات والدها ولم يورثها غير اسمه وكوخ حقير قائم بين اشجار الجوز والحور ، وماتت امها ولم تترك لها سوى دموع الأسى وذلّ التيتّم ، فباتت غريبة في أرض مولدها ، وحيدة بين تلك الصخور العالية والاشجار المحتبكة ، وكانت تسير في كل صباح عارية القدمين رثّة الثوب وراء بقرة حلوب الى طرف الوادي حيث المرعى الخصيب ، وتجلس بظلّ الأغصان مترنّمة مع العصافير ، باكية مع الجداول ، حاسدة البقرة على وفرة المآكل ، متأمّلة بنمو الزهور ورفرفة الفراش . وعندما تغيب الشمس ويضنيها الجوع ترجع نحو ذلك الكوخ

---

١ نسبة الى بان وهي قرية جميلة في شمال لبنان .

وتجلس مع صبية وليّها ملتهمة خبز الذرة مع قليل من الثمار المجففة والبقول المغموسة بالخل والزيت ، ثم تفترش القش اليابس مسندة رأسها بساعديها وتنام متنهدة متمنية لو كانت الحياة كلها نوماً عميقاً لا تقطعه الأحلام ولا تليه اليقظة. وعند مجيء الفجر ينتهرها وليُّها لقضاء حاجة فتهبّ من رقادها مرتعدة خائفة من سخطه وتعنيفه .

كذا مرّت الاعوام على مرتا المسكينة بين تلك الروابي والاودية البعيدة ، فكانت تنمو بنمو الأنصاب وتتولد في قلبها العواطف على غير معرفة منها مثلما يتولد العطر في اعماق الزهرة ، وتنتابها الأحلام والهواجس مثلما تتناوب القطعان مجاري المياه ، فصارت صبيّة ذات فكرة تشابه تربة جيدة عذراء لم تُلقِ بها المعرفة بذوراً ولا مشت عليها أقدام الاختبار ، وذات نفس كبيرة طاهرة منفيّة بحكم القدر الى تلك المزرعة حيث تتقلب الحياة مع فصول السنة كأنها ظلّ إله غير معروف جالس بين الارض والشمس .

نحن الذين صرفوا معظم العمر في المدن الآهلة نكاد لا نعرف شيئاً عن معيشة سكان القرى والمزارع المنزوية في لبنان، قد سرنا مع تيّار المدنيّة الحديثة حتى نسينا او تناسينا فلسفة تلك الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهراً ونقاوة ، تلك الحياة

التي اذا ما تأملناها وجدناها مبتسمة في الربيع ، مثقلة في الصيف ، مستغلة في الخريف ، مرتاحة في الشتاء ، متشبّهة بأمنا الطبيعة في كل ادوارها . نحن اكثر من القرويين مالاً وهم اشرف منّا نفوساً . نحن نزرع كثيراً ولا نحصد شيئاً ، امّا هم فيحصدون ما يزرعون . نحن عبيد مطامعنا وهم ابناء قناعتهم . نحن نشرب كأس الحياة ممزوجة بمرارة اليأس والخوف والملل ، وهم يرتشفونها صافية .

بلغت مرتا السادسة عشرة وصارت نفسها مثل مرآة صقيلة تعكس محاسن الحقول وقلبها شبيهاً بخلايا الوادي يرجع صدى كل الاصوات .

ففي يوم من ايام الخريف المملوءة بتأوّه الطبيعة جلست بقرب العين المنعتقة من اسر الارض انعتاق الافكار من مخيلة الشاعر تتأمل باضطراب اوراق الاشجار المصفرّة وتلاعب الهواء بها مثلما يتلاعب الموت بأرواح البشر ، ثم تنظر نحو الزهور فتراها قد ذبلت ويبست قلوبها حتى تشققت واصبحت تستودع التراب بذورها مثلما تفعل النساء بالجواهر والحلى ايام الثورات والحروب .

وبينما هي تنظر الى الزهور والاشجار ، وتشعر معها بألم فراق الصيف ، سمعت وقع حوافر على حصباء الوادي ، فالتفتت

واذا بفارس يتقدّم نحوها ببطء ، ولما اقترب من العين وقد دلّت ملامحه وملابسه على ترف وكياسة ، ترجّل عن ظهر جواده وحيّاها بلطف ما تعوّدته من رجل قط ، ثم سألها قائلاً : « قد تهت عن الطريق المؤدية الى الساحل ، فهل لك ان تهديني ايتها الفتاة ؟ » فأجابت وقد وقفت منتصبة كالغصن على حافة العين : « لست ادري يا سيدي ولكني اذهب وأسأل وليّي فهو يعلم . » قالت هذه الكلمات بوجل ظاهر وقد اكسبها الحياء جمالاً ورقّة ، واذ همّت بالذهاب اوقفها الرجل وقد سرت في عروقه خمرة الشبيبة وتغيرت نظراته وقال : « لا ، لا تذهبي . » فوقفت في مكانها مستغربة شاعرة بوجود قوّة في صوته تمنعها عن الحراك . ولمّا اختلست من الحياء نظرة اليه رأته يتأمّل بها باهتمام لم تفقه له معنى ويبتسم لها بلطف سحري يكاد يبكيها لعذوبته ، وينظر بودّة وميل الى قدميها العاريتين ومعصميها الجميلين وعنقها الاملس وشعرها الكثيف الناعم ، ويتأمّل بافتتان وشغف كيف قد لوّحت الشمس بشرتها وقوّت الطبيعة ساعديها ، امّا هي فكانت مطرقة خجلاً لا تريد الانصراف ولا تقوى على الكلام لأسباب لا تدركها .

في ذلك المساء رجعت البقرة الحلوب وحدها الى الحظيرة ،

امّا مرتا فلم ترجع ، ولمّا عاد وليُّها من الحقل بحث عنها بين تلك الوهاد ولم يجدها ، فكان يناديها باسمها ولا تجيبه غير الكهوف وتأوهات الهواء بين الاشجار . فرجع مكتئباً الى كوخه واخبر زوجته فبكت بسكينة طول ذلك الليل وكانت تقول في سرّها : رأيتها مرّة في الحلم بين اظافير وحش كاسر يمزّق جسدها وهي تبتسم وتبكي !

هذا اجمال ما عرفته عن حياة مرتا في تلك المزرعة الجميلة ، وقد تخبرته من شيخ قروي عرفها مذ كانت طفلة حتى شبّت واختفت من تلك الاماكن غير تاركة خلفها سوى دموع قليلة في عيني امرأة وليّها ، وذكرى رقيقة مؤثرة تسيل مع نسيمات الصباح في ذلك الوادي ، ثم تضمحلّ كأنها لهاث طفل على بلّور النافذة .

٢

جاء خريف سنة ١٩٠٠ فعدت الى بيروت بعد ان صرفت العطلة المدرسية في شمال لبنان ، وقبل دخولي الى المدرسة قضيت اسبوعاً كاملاً انجوّل مع اترابي في المدينة متمتعين بغبطة الحرية التي تعشقها الشبيبة وتحترمها في منازل الأهل وبين جدران المدرسة ، فكنّا اشبه بعصافير رأت ابواب الاقفاص مفتوحة امامها فصارت تشبع القلب من لذة التنقل وغبطة التغريد ، والشبيبة حلم جميل تسترق عذوبته معميات الكتب وتجعله يقظة قاسية ، فهل يجيء يوم يجمع فيه الحكماء بين احلام الشبيبة ولذة المعرفة مثلما يجمع العتاب بين القلوب المتنافرة ؟ هل يجيء يوم تصبح فيه الطبيعة معلمة ابن آدم ، والانسانية كتابه ، والحياة مدرسته ؟ هل يجيء ذلك اليوم ؟ لا ندري ، ولكننا نشعر بسيرنا الحثيث نحو الارتقاء الروحي ، وذلك الارتقاء هو ادراك جمال الكائنات بواسطة عواطف نفوسنا واستدرار السعادة بمحبتنا ذلك الجمال .

ففي عشية يوم وقد جلست على شرفة المنزل اتأمل العراك المستمرّ في ساحة المدينة ، واسمع جلبة باعة الشوارع ومناداة

كل منهم عن طيب ما لديه من السلع والمآكل ، اقترب مني صبي ابن خمس يرتدي اطماراً بالية ويحمل على منكبيه طبقاً عليه طاقات الزهور ، وبصوت ضعيف يخفضه الذلّ الموروث والانكسار الأليم قال :

– أتشتري زهراً يا سيدي ؟

فنظرت الى وجهه الصغير المصفرّ ، وتأملت بعينيه المكحولتين بخيالات التعاسة والفاقة ، وفمه المفتوح قليلاً كأنه جرح عميق في صدر متوجع ، وذراعيه العاريتين النحيلتين ، وقامته الصغيرة المهزولة المنحنية على طبق الزهور كأنها غصن من الورد الأصفر الذابل بين الأعشاب النضرة ، تأملتُ بكل هذه الأشياء بلمحة مظهراً شفقتي بابتسامات هي أمرّ من الدموع ، تلك الابتسامات التي تنشقّ من اعماق قلوبنا وتظهر على شفاهنا ولو تركناها وشأنها لتصاعدت وانسكبت من مآقينا . ثم ابتعت بعض زهوره وبغيتي ابتياع محادثته لأنني شعرت بأن من وراء نظراته المحزنة قلباً صغيراً ينطوي على فصل من مأساة الفقراء الدائم تمثيلها على ملعب الأيام ، وقلّ من يهتم بمشاهدتها لأنها موجعة . ولمّا خاطبته بكلمات لطيفة استأمن واستأنس ونظر اليّ مستغرباً لأنه مثل اترابه الفقراء لم يتعود غير خشن الكلام من أولئك الذين ينظرون غالباً الى

صبية الأزقة كأشياء قذرة لا شأن لها ، وليس كنفوس صغيرة مكلومة بأسهم الدهر . وسألته اذ ذاك قائلاً :

– ما اسمك ؟

فأجاب وعيناه مطرقتان الى الأرض :

– اسمي فؤاد !

قلت : ابن من أنت وابن اهلك ؟

قال : انا ابن مرتا البانيّة .

قلت : وابن والدك ؟

فهزّ رأسه الصغير كمن يجهل معنى الوالد . فقلت :

– وابن امك يا فؤاد ؟

قال : مريضة في البيت .

تجرّعتُ مسامعي هذه الكلمات القليلة من فم الصبي وامتصّتها عواطفي مبتدعة صوراً وأشباحاً غريبة محزنة لأني عرفت بلحظة ان مرتا المسكينة التي سمعت حكايتها من ذلك القرويّ هي الآن في بيروت مريضة . تلك الصبيّة التي كانت بالامس مستأمنة بين اشجار الأودية هي اليوم في المدينة تعاني مضض الفقر والاوجاع ، تلك اليتيمة التي صرفت شبيبتها على اكفّ الطبيعة ترعى البقر في الحقول الجميلة قد انحدرت مع جرف

نهر المدينة الفاسدة وصارت فريسة بين اظفار التعاسة والشقاء.

كنت افكر واتخيّل هذه الاشياء والصبي ينظر اليّ كأنه رأى بعين نفسه الظاهرة انسحاق قلبي. ولمّا اراد الانصراف امسكت بيده قائلاً:

– سر بي الى امك لأني اريد ان اراها!

فسار امامي صامتاً متعجباً، ومن حين الى آخر كان ينظر الى الوراء ليرى اذا كنت بالحقيقة متبعاً خطواته.

في تلك الازقة القذرة حيث يختمر الهواء بأنفاس الموت، بين تلك المنازل البالية حيث يرتكب الاشرار جرائمهم مختبئين بستائر الظلمة، وفي تلك المنعطفات الملتوية الى اليمين والى الشمال التواء الافاعي السوداء كنت اسير بخوف وتهيّب وراء صبي له من حداثته ونقاوة قلبه شجاعة لا يشعر بها من كان خبيراً بمكايد أجلاف القوم في مدينة يدعوها الشرقيون عروس سوريا ودرة تاج السلاطين، حتى اذا ما بلغنا اذيال الحي دخل الصبي بيتاً حقيراً لم تبقِ منه السنون غير جانب متداعٍ، فدخلت خلفه وطرقات قلبي تتسارع كلما اقتربت حتى صرت في وسط غرفة رطبة الهواء ليس فيها من الاثاث غير سراج ضعيف يغالب الظلمة بسهام أشعته الصفراء، وسرير حقير يدلّ على عوز مبرح وفقر مدقع منطرحة عليه امرأة

فاتة قد حوّلت وجهها نحو الحائط كأنها تحتمي بـه من مظالم العالم او كأنها وجدت بين جدرانه قلباً أرقّ وألين من قلوب البشر . ولمّا اقترب الصبي منهـا منادياً : « يا اماه ! . . » التفتت اليه فرأته يومىء نحوي فتحركت اذ ذاك بين اللحف الرثـة ، وبصوت موجـع يلاحقه ألم النفس والتنهيـدات المرة قالت :

– ماذا تريد ايها الرجل ؟ هل جئت لتبتاع حياتي الاخيرة وتجعلها دنسة بشهواتك ؟ اذهب عني فالأزقـة مشحونة بالنساء اللواتي يبعنـك اجسادهنّ ونفوسهنّ بأبخس الاثمـان ، اما انا فلم يبقَ لي مـا ابيعه غير فضلات انفاس متقطعة ، عمّـا قريب يشتريها الموت براحة القبر !

فاقتربت من سريرها وقـد آلمت كلماتهـا قلبي لأنها مختصر حكايتهـا التعسة ، وقلت متمنياً لو كانت عواطفي تسيل مـع الكلام :

– لا تخافي مني يا مرتا ، فأنا لم اجىء اليك كحيوان جائع بل كإنسان متوجع . انا لبنـاني عشت زمناً في تلك الاودية والقرى القريبة من غابة الارز . لا تخافي مني يا مرتا !

سمعت كلماتي وشعرت بأنهـا صادرة من اعماق نفس تتألم معها ، فاهتزّت على مضجعها مثل القضبان العارية امـام رياح

الشتاء ، ووضعت يديها على وجهها كأنها تريد ان تستر ذاتها من امام الذكرى الهائلة بجلاوتها، المرّة بجمالها . وبعد سكينة ممزوجة بالتأوّه ظهر وجهها من بين كتفيها المرتجفتين فرأيت عينين غائرتين محدقتين بشيء غير منظور منتصب في فضاء الغرفة ، وشفتين يابستين تحركهما ارتعاشات اليأس ، وعنقاً تتردّد فيه حشرجة النزع المصحوبة بأنين عميق منقطع ، وبصوت يبثه الالتماس والاستعطاف ويسترجعه الضعف والألم قالت :

— جئت محسناً مشفقاً فلتجزك السماء عنّي ان كان الاحسان على الخطاة بِرّاً والشفقة على المرذولين صلاحاً ، ولكنّي اطلب اليك ان تعود من حيث اتيت لأن وقوفك في هذا المكان يكسبك عاراً ومذمّة ، وحنانك عليّ يثمر لك عيباً ومهانة . ارجع قبل ان يراك احد في هذه الغرفة الدنسة المملوءة بأقذار الخنازير ، وسر مسرعاً ساتراً وجهك بأثوابك كيلا يعرفك عابرو الطريق. ان الشفقة التي تملأ نفسك لا تعيد اليّ طهارتي ، ولا تمحو عيوبي ، ولا تزيل يد الموت القويّة عن قلبي . انا منفيّة بحكم تعاستي وذنوبي الى هذه الاعماق المظلمة ، فلا تدع شفقتك تدنيك من العيوب . انا كالأبرص الساكن بين القبور فلا تقترب منّي ، لأن الجامعة تحسبك دنساً وتقصيك

عنها اذا فعلت . ارجع الآن ولا تذكر اسمي في تلك الأودية المقدسة ، لأن النعجة الجرباء ينكرها راعيها خوفاً على قطيعه . واذا ذكرتني قل قد ماتت مرتا البائسة ولا تقل غير ذلك .

ثم أخذت يدي ابنها الصغيرتين وقبلتهما بلهفة وقالت متنهدة :

— سوف ينظر الناس الى ولدي بعين السخرية والاحتقار قائلين : هذا ثمرة الاثم ، هذا ابن مرتا الزانية ، هذا ابن العار ، هذا ابن الصدف . سوف يقولون عنه اكثر من ذلك ، لأنهم عميان لا يبصرون ، وجهلاء لا يدرون أن امه قد طهّرت طفولته بأوجاعها ودموعها ، وكفّرت عن حياته بتعاستها وشقائها . سوف أموت وأتركه يتيماً بين صبيان الأزقة وحيداً في هذه الحياة القاسية ، غير تاركة له سوى ذكرى هائلة تخجله ان كان جباناً خاملاً وتهيج دمه ان كان شجاعاً عادلاً ، فإن حفظته السماء وشبّ رجلاً قوياً ساعد السماء على الذي جنى عليه وعلى امه ، وان مات وتملّص من شبكة السنين وجدني مترفّقة قدومه هناك حيث النور والراحة !

فقلت وقلبي يوحي اليّ : « لستِ كالأبرص يا مرتا وان سكنتِ بين القبور ، ولستِ دنسة وان وضعتك الحياة بين ايدي الدنسين . ان ادران الجسد لا تلامس النفس النقية ،

والثلوج المتراكمة لا تميت البذور الحيّة ، وما هذه الحياة سوى بيدر أحزان تدرس عليه أغمار النفوس قبل ان تعطي غلّتها ، ولكن ويل للسنابل المتروكة خارج البيدر ، لأن نمل الأرض يحملها وطيور السماء تلتقطها ، فلا تدخل أهراء ربّ الحقل . انتِ مظلومة يا مرتا وظالمك هو ابن القصور، ذو المال الكثير والنفس الصغيرة . انت مظلومة ومحتقَرة ، وخير للانسان ان يكون مظلوماً من ان يكون ظالماً ، وأخلق به ان يكون شهيد ضعف الغريزة الترابية من ان يكون قويّاً ساحقاً بمقابضه زهور الحياة ، مشوّهاً بميوله محاسن العواطف . النفس يا مرتا هي حلقة ذهبيّة مفروطة من سلسلة الالوهية ، فقد تصهر النار الحامية هذه الحلقة وتغيّر صورتها وتمحو جمال استدارتها ، لكنها لا تحيل ذهبها الى مادة اخرى ، بل تزيده لمعاناً . ولكن ويل للهشيم اذ تأتي النار وتلتهمه وتجعله رماداً ثم تهبّ الرياح وتذريه على وجه الصحراء . . . اي مرتا ، انتِ زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبىء في الهياكل البشرية . قد داستك تلك النعال بقساوة ، لكنها لم تخف عطرك المتصاعد مع نواح الأرامل وصراخ اليتامى وتنهيدات الفقراء نحو السماء مصدر العدل والرحمة . تعزّي يامرتا بكونك زهرة مسحوقة ولستِ قدماً ساحقة !

كنت اتكلّم وهي مصغية وقد انارت التعزية وجهها المصفرّ مثلما تنير أشعة المغرب اللطيفة خلايا الغيوم . ثم أومأت اليّ ان اجلس على جانب السرير ، ففعلت مسائلاً ملامحها المتكلمة عن مخبآت نفسها الحزينة . ملامح من عرف انه مائت . ملامح صبيّة في ربيع العمر قد شعرت بوقع اقدام الموت حول فراشها البالي . ملامح امرأة متروكة كانت بالأمس بين اودية لبنان الجميلة مملوءة حياة وقوّة ، فصارت اليوم مهزولة تترقّب الانعتاق من قيود الحياة . وبعد سكينة مؤثرة جمعت فضلات قواها وقالت ودموعها تتكلم معها ونفسها تتصاعد مع انفاسها :

— نعم ، انا مظلومة ، انا شهيدة الحيوان المختبىء في الانسان ، انا زهرة مسحوقة تحت الأقدام . كنت جالسة على حافة ذلك الينبوع عندما مرّ راكباً . . . قد خاطبني بلطف ورقّة وقال لي اني جميلة وانه قد احبني فلا يتركني ، وان البرية مملوءة وحشة والأودية هي مساكن الطيور وبنات آوى . . . ثم ألوى عليّ وضمني الى صدره وقبلني ، وكنت لم اذق حتى تلك الساعة طعم القبلة لأني كنت يتيمة متروكة . اردفني خلفه على ظهر الجواد وجاء بي الى بيت جميل منفرد . ثم أتى بالملابس الحريرية والعطور الزكية والمآكل اللذيذة

والمشارب الطيّبة . . . فعل كل ذلك مبتسماً ساتراً بشاعة ميوله وحيوانية مرامه بالكلام اللطيف والاشارات المستحبّة . . . وبعد ان أشبع شهواته من جسدي وأثقل بالذلّ نفسي غادرني تاركاً في احشائي شعلة حيّة ملتهبة تغذت من كبدي ونمت بسرعة ثم خرجت الى هذه الظلمة من بين دخان الأوجاع ومرارة العويل . . . وهكذا قسمت حياتي الى شطرين : شطر ضعيف متألّم ، وشطر صغير يصرخ في هدوء الليل طالباً الرجوع الى الفضاء الوسيع . في ذلك البيت المنفرد تركني الظلوم ورضيعي نقاسي مضض الجوع والبرد والوحدة ، لا معين لنا غير البكاء والنحيب ، ولا سمير سوى الخوف والهواجس . . .

وعلم رفاقه بمكاني وعرفوا بعوزي وضعفي ، فجاء الواحد بعد الآخر وكلّ يبتغي ابتياع العرض بالمال ، واعطاء الخبز لقاء شرف الجسد . . . آه كم قبضت على روحي بيدي لتقديمها للابدية ، ثم افلتّها لأنها لم تكن لي وحدي ، فشريكي بها كان ولدي الذي ابعدته السماء عنها الى هذه الحياة ، مثلما اقصتني عن الحياة وألقتني في اعماق هذه الهاوية . . . والآن هاهي الساعة قد دنت وعريسي الموت قد جاء بعد هجرانه ليقودني الى مضجعه الناعم !

وبعد سكينة عميقة تشابه مس الأرواح المتطايرة ، رفعت عينيها المحجوبتين بظل المنيّة وقالت بهدوء :

– ايها العدل الخفي، الكامن وراء هذه الصور المخيفة ، انت، انت السامع عويل نفسي المودّعة ونداء قلبي المتهامل ، منك وحدك اطلب واليك اتضرع ، فارحمني وارعَ بيمناك ولدي، وتسلّم بيسراك روحي !

وخارت قواها وضعفت تنهداتها ، ونظرت الى ابنها نظرة حزن وحنو ، ثم ميّلت عينيها ببطء ، وبصوت يكاد يكون سكينة قالت : « أبانا الذي في السموات ... ليتقدّس اسمك ... ليأتِ ملكوتك . . . لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الارض . اغفر لنا ذنوبنا . »

وانقطع صوتها ، وبقيت شفتاها متحركتين هنيهة وبوقوفهما همدت كل حركة في جسدها . ثم اختلجت وتأوّهت وابيضّ وجهها وفاضت روحها . وظلّت عيناها محدقتين بما لا يرى .

***

عندما جاء الفجر وُضعت جثة مرتا البانيّة في تابوت خشبي ، وحملت على كتفَي فقيرين ودُفنت في حقل مهجور بعيد عن المدينة . وقد رفض الكهّان الصلاة على بقاياها ولم يقبلوا ان

ترتاح عظامها في الجبانة حيث الصليب يحفر القبور ، ولم يشيّعها الى تلك الحفرة البعيدة غير ابنها وفتى آخر كانت مصائب هذه الحياة قد علمته الشفقة .

يوحنا المجنون

١

في ايام الصيف كان يوحنا يسير كل صباح الى الحقل سائقاً ثيرانه وعجوله ، حاملاً محراثه على كتفيه ، مصغياً لتغاريد الشحاريرِ وحفيف اوراق الأغصان ، وعند الظهيرة كان يقترب من الساقية المتراكضة بين منخفضات تلك المروج الخضراء ويأكل زاده تاركاً على الاعشاب ما بقي من الخُبز للعصافير . وفي المساء عندما ينتزع المغرب دقائق النور من الفضاء ، كان يعود الى البيت الحقير المشرف على القرى والمزارع في شمال لبنان ، ويجلس بسكينة مع والديه الشيخين مصغياً لأحاديثهما المملوءة بأخبار الايام شاعراً بدنو النعاس والراحة معاً .

وفي أيام الشتاء كان يتكىء مستدفئاً بقرب النار ، سامعاً تأوُّه الارياح وندب العناصر ، مفكّراً بكيفيّة تتابع الفصول ، ناظراً من الكوّة الصغيرة نحو الاودية المكتسية بالثلوج ، والاشجار العارية من الاوراق كأنها جماعة من الفقراء تركوا

خارجاً بين اظفار البرد القارس والرياح الشديدة .

وفي الليالي الطويلة كان يبقى ساهراً حتى ينام والده ثم يفتح الخزانة الخشبية ويأتي بكتاب العهد الجديد ، ويقرأ منه سرّاً على نور مسرجة ضعيفة ، متلفتاً بتحذّر بين الاونة والاخرى نحو والده النائم الذي منعه عن تلاوة ذلك الكتاب لأن الكهنة ينهون بسطاء القلب عن استطلاع خفايا تعاليم يسوع ويحرمونهم من « نعم الكنيسة » اذا فعلوا .

هكذا صرف يوحنا شبيبته بين الحقل المملوء بالمحاسن والعجائب وكتاب يسوع المفعم بالنور والروح . كان سكوتاً كثير التأملات يصغي لأحاديث والديه ولا يجيب بكلمة ، ويلتقي بأترابه الفتيان ويجالسهم صامتاً ناظراً الى البعيد حيث يلتقي الشفق بازرقاق السماء . واذا ما ذهب الى الكنيسة عاد مكتئباً ، لأن التعاليم التي يسمعها من على المنابر والمذابح هي غير التي يقرأها في الانجيل ، وحياة المؤمنين مع رؤسائهم ، هي غير الحياة الجميلة التي تكلّم عنها يسوع الناصري .

***

جاء الربيع واضمحلت الثلوج في الحقول والمروج ، وأصبحت بقاياها في اعالي الجبال تذوب وتسير جداول جداول في

منعطفات الاودية ، وتجتمع انهراً غزيرة تتكلّم بهديرها عن يقظة الطبيعة ، فأزهرت أشجار اللوز والتفاح ، وأورقت قضبان الحور والصفصاف ، وانبتت الروابي اعشابها وازاهرها ، فتعب يوحنا من الحياة بجانب الموائد ، وعرف بأن عجوله قد ملّت ضيق المرابض ، واشتاقت الى المراعي الخضراء ، لأن مخازن التبن قد شحّت ، وزنابل الشعير قد نفدت . فجاء وحلّها من معالفها وسار امامها الى البرية سائراً بعباءته كتاب العهد الجديد كيلا يراه أحد ، حتى بلغ المرجة المنبسطة على كتف الوادي بقرب حقول الدير القائم كالبرج الهائل بين تلك الهضاب[1] ، فتفرّقت عجوله مرتعية الاعشاب ، وجلس مستنداً الى صخرة يتأمّل تارة بجمال الوادي وطوراً بسطور كتابه المتكلمة عن ملكوت السموات .

كان ذلك النهار من اواخر ايام الصوم ، وسكان تلك القرى المنقطعون عن اللحوم ، اصبحوا يترقبون بفضلات الصبر مجيء عيد الفصح . امّا يوحنا ، فمثل جميع المزارعين الفقراء لم يكن يفرّق بين ايام الصيام وغيرها ، فالعمر كله كان صوماً طويلاً عنده ، وقوته لم يتجاوز قط الخبز المعجون بعرق الجبين ،

---

١ هو دير غني في شمال لبنان واسع الأراضي ، يدعى دير البشاع النبي ، يقطنه عشرات من الرهبان المعروفين بالحلبيين .

والثمار المبتاعة بدم القلب ، فالانقطاع عن اللحوم والمآكل الشهية كان طبيعياً . ومشتهيات الصوم لم تكن في جسده بل في عواطفه ، لأنها تعيد الى نفسه ذكرى مأساة « ابن البشر » ونهاية حياته على الارض .

كانت العصافير ترفرف متناجية حول يوحنا، وأسراب الحمام تتطاير مسرعة ، والزهور تتمايل مع النسيم كأنها تتحمم بأشعة الشمس ، وهو يقرأ في كتابه بتمعن ثم يرفع رأسه ويرى قبب الكنائس في المدن والقرى المنثورة على جانبي الوادي ، ويسمع طنين أجراسها فيغمض عينيه وتسبح نفسه فوق أشلاء الاجيال الى اورشليم القديمة متتبعة أقدام يسوع في الشوارع سائلة العابرين عنه فيجيبونها قائلين : — هنا شفى العميان واقام المقعدين. وهناك ضفروا له اكليلاً من الشوك ووضعوه على رأسه — في هذا الرواق وقف يكلّم الجموع بالامثال ، وفي ذاك القصر كتّفوه على العمود وبصقوا على وجهه وجلدوه — في هذا الشارع غفر للزانية خطاياها ، وفي ذاك وقع على الارض تحت اثقال صليبه .

ومرّت الساعة ويوحنا يتألم مع الاله الانسان بالجسد ، ويتمجد معه بالروح ، حتى اذا ما انتصف النهار قام من مكانه ونظر حوله فلم يرَ عجوله، فمشى ملتفتاً الى كل ناحية مستغرباً

اختفاءها في تلك المروج السهلة . ولما بلغ الطريق المنحنية بين الحقول الخضراء خطوط الكفّ رأى عن بعد رجلاً بثلابس سوداء واقفاً بين البساتين ، فأسرع نحوه ، ولمّا اقترب منه وعرف انه احد رهبان الدير ، حيّاه بإحناء رأسه ثم سأله قائلاً: « هل رأيت عجولاً سائرة بين هذه البساتين يا ابتاه ؟ » فنظر اليه الراهب متكلّفاً اخفاء حنقه وأجاب بخبث : « نعم رأيتها فهي هناك ، تعالَ وانظرها . » فسار يوحنا وراء الراهب حتى بلغا الدير ، فإذا بالعجول ضمن حظيرة واسعة موثقة بالحبال يحفرها أحد الرهبان وفي يده نبوت يجلدها به كيفما تحركت ، واذ همّ يوحنا ليقودها أمسك الراهب بعباءته والتفت نحو رواق الدير وصرخ بأعلى صوته : « هوذا الراعي المجرم قد قبضت عليه . » فهرول القسس والرهبان من كل ناحية يتقدمهم الرئيس وهو رجل يمتاز عن رفاقه بنحافة اثوابه وانقباض سحنته ، واحاطوا بيوحنا كالجنود المتسابقة على الفريسة ، فنظر يوحنا الى الرئيس وقال بهدوء : « ماذا فعلت لأكون مجرماً ، ولماذا قبضتم عليّ؟ » فأجابه الرئيس وقد بانت القساوة على وجهه الغضوب ، وبصوت خشن أشبه بصرير المناشير قال : « قد ارتعت عجولك زرع الدير وقضمت قضبان كرومه ، فقبضنا عليك لأن الراعي هو المسؤول عمّا تخربه مواشيه . »

فقال يوحنا مستعطفاً: «هي بهائم لا عقل لها يا ابتاه ، وانا فقير لا املك غير قوى ساعدي وهذه العجول ، فاتركني اقودها واسير واعداً اياك بأن لا أجيء الى هذه المروج مرة اخرى . » فقال الرئيس وقد تقدم قليلاً الى الأمام ورفع يده نحو السماء : « ان الله قد وضعنا ههنا ووكل الينا حماية اراضي مختاره اليشاع العظيم ، فنحن نحافظ عليها ليلاً ونهاراً بكل قوانا لانها مقدسة ، وهي كالنار تحرق كل من يقترب منها ، فاذا امتنعت عن محاسبة الدير انقلبت الاعشاب في أجواف عجولك سموماً آكلة ، ولكن ليس من سبيل الى الامتناع لأننا نبقي بهائمك في حظيرتنا حتى تفي آخر فلس عليك . »

وهمّ الرئيس بالذهاب فأوقفه يوحنا ، وقال متذللاً متوسلاً: « استحلفك يا سيدي بهذه الايام المقدسة ، التي تألم فيها يسوع وبكت لأحزانها مريم ، ان تتركني اذهب بعجولي . لا تكن قاسي القلب عليّ ، فأنا فقير مسكين والدير غني عظيم ، فهو يسامح تهاملي ويرحم شيخوخة والدي . » فالتفت اليه الرئيس وقال بهزء : « لا يسامحك الدير بمثقال ذرة ايها الجاهل ، فقيراً كنت أم غنياً ، فلا تستحلفني بالاشياء المقدسة لأننا اعرف منك بأسرارها وخفاياها ، وان شئت ان تقود عجولك من هذه المرابض فافتدها بثلاثة دنانير لقاء ما التهمت من الزرع . »

فقال يوحنا بصوت مختنق : « انني لا املك بارة واحدة يا ابتاه. فاشفق عليّ وارحم فقري . » فأجاب الرئيس بعد ان مشّط لحيته الكثيفة بأصابعه : « اذهب وبع قسماً من حقلك وعد بثلاثة دنانير ، فخير لك ان تدخل السماء بلا حقل من ان تكتسب غضب اليشاع العظيم باحتجاجك امام مذبحه، وتهبط في الآخرة الى الجحيم حيث النار المؤبدة . »

فسكت يوحنا دقيقة وقد ابرقت عيناه وانبسط محيّاه وتبدّلت لوائح الاسترحام بملامح القوّة والارادة، فقال بصوت تمتزج فيه نغمة المعرفة بعزم الشبيبة : « هل يبيع الفقير حقله منبت خبزه ومورد حياته ليضيف ثمنه الى خزائن الدير المفعمة بالفضة والذهب ؟ أمن العدل ان يزداد الغني غنىً ويموت المسكين جوعاً كيما يغفر اليشاع العظيم ذنوب بهائم جائعة ؟ » فقال الرئيس هازاً رأسه استكباراً : هكذا يقول يسوع المسيح « من له يعطى ويزاد ، ومن ليس له يؤخذ منه . »

سمع يوحنا هذه الكلمات فاضطرب قلبه في صدره ، وكبرت نفسه ، وتعالت قامته عن ذي قبل ، كأنّ الارض قد نمت تحت قدميه، فانتشل الانجيل من جيبه كما يستلّ الجندي سيفه للمدافعة ، وصرخ قائلا : « هكذا تتلاعبون بتعاليم هذا الكتاب ايها المراؤون . هكذا تستخدمون أقدس ما في الحياة

لتعميم شرور الحياة . فويل لكم اذ يأتي « ابن البشر » ثانية ويخرب اديرتكم ويلقي حجارتها في هذا الوادي ، محرقاً بالنار مذابحكم ورسومكم وتماثيلكم ! ويل لكم من دماء يسوع الزكية ودموع امه الطاهرة ، اذ تنقلب سيلاً عليكم وتجرفكم الى أعماق الهاوية ! ويل وألف ويل لكم ايها الخاضعون لأصنام مطامعكم ، الساترون بالاثواب السوداء اسوداد مكروهاتكم ، المحرّكون بالصلاة شفاهكم وقلوبكم جامدة كالصخور ، الراكعون بتذلل امام المذابح ونفوسكم متمردة على الله . قد قدتموني بخباثة الى هذا المكان المملوء بآثامكم ، وكمجرم قبضتم عليّ من أجل قليل من الزرع تستنبته الشمس لي ولكم على السواء ، ولمّا استعطفتكم باسم يسوع واستحلفتكم بأيام حزنه وأوجاعه استهزأتم بي كأنّي لم اتكلّم بغير الحماقة والجهالة . خذوا وابحثوا في هذا الكتاب وأروني متى لم يكن يسوع غفوراً . واقرأوا هذه المأساة السماوية واخبروني اين تكلّم بغير الرحمة والرأفة ، أفي موعظته على الجبل ، ام في تعاليمه في الهيكل امام مضطهدي تلك الزانية المسكينة ، ام على الجلجلة عندما بسط ذراعيه على الصليب ليضم الجنس البشري . انظروا يا قساة القلوب الى هذه المدن والقرى الفقيرة ، ففي منازلها يتلوّى المرضى على أسرّة الأوجاع ، وفي جبوسها تفنى

ايام البائسين ، وامام ابوابها يتضرّع المتسوّلون ، وعلى طرقها ينام الغرباء ، وفي مقابرها تنوح الأرامل واليتامى ، وانتم ههنا تتمتعون براحة التواني والكسل ، وتتلذذون بثمار الحقول وخمور الكروم . فلم تزوروا مريضاً ، ولم تفتقدوا سجيناً ، ولم تطعموا جائعاً ، ولم تؤووا غريباً ، ولم تعزّوا حزيناً . وليتكم تكتفون بما لديكم وتقنعون بما اغتصبتم من جدودنا باحتيالكم ، فأنتم تمدّون ايديكم كما تمدّ الافاعي رؤوسها ، وتقبضون بشدة على ما وفّرته الارملة من عمل يديها وما ابقاه الفلاح لأيام شيخوخته . »

وسكت يوحنا ريثما استرجع انفاسه ثم رفع رأسه بفخر وقال بهدوء : « انتم كثار ههنا وانا وحدي . افعلوا بي ما شئتم ، فالذئاب تفترس النعجة في ظلمة الليل لكن آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس . »

كان يوحنا يتكلّم وفي صوته قوّة علوية توقف في ابدان الرهبان الحركة وتثير في نفوسهم الغيظ والحدة ، ومثل غربان جائعة في اقفاص ضيقة كانوا يرتجفون غضباً وأسنانهم تصرف بشدة مترقبين من رئيسهم اشارة ليمزّقوه تمزيقاً ويسحقوه سحقاً ، حتى اذا ما انتهى من كلامه وسكت سكوت العاصفة بعد تكسيرها الاغصان المتشامخة والانصاب اليابسة ، صرخ

الرئيس بهم قائلاً :

« اقبضوا على هـذا المجرم الشقي وانزعوا منه الكتـاب وجرّوه الى حجرة مظلمة من الدير ، فمن يجدّف على مختاري الله لا يغفر له ههنـا ولا في الأبدية . » فهجم الرهبان على يوحنا هجوم الكواسر على الفريسة وقادوه مكتوفاً الى حجرة ضيقة واقفلوا عليه بعـد ان نهكوا جسده بخشونـة أكفّهم ورفس أرجلهم .

في تلك الغرفـة المظلمة وقف يوحنـا وقفة منتصر توفّق العدو لأسره ، ونظر من الكوّة الصغيرة المطلّة على الوادي المملوء بنور النهار، فتهلل وجهه وشعر بلذّة روحية تعانق نفسه وطمأنينة مستعذبة تملك عواطفه ، فالحجرة الضيّقة لم تسجن غير جسده، امّا نفسه فكانت حرّة تتموّج مع النسيم بـين الطلول والمروج ، وأيدي الرهبـان التي آلمت اعضاءه لم تمس عواطفه المستأمنة بجوار يسـوع الناصري . والمرء لا تعذبه الاضطهادات اذا كان عادلاً ، ولا تفنيه المظـالم اذا كان بجانب الحقّ ، فسقراط شرب السمّ مبتسماً ، وبولس رجم فارحـاً . ولكن هو الضمير الخفي نخالفه فيوجعنا ، ونخونه فيقضي علينا .

وعلم والدا يوحنا بما جرى لوحيدهما ، فجاءت امه الى الدير مستعينة بعصاهـا ، وترامت على قدمي الرئيس تذرف الدموع

وتقبّل يديه ليرحم ابنها ويغتفر جهله . فقال لها بعد ان رفع عينيه نحو السماء كمترقّع عن العالمات : « نحن نغتفر طيش ابنك ونسامح جنونه ولكن للدير حقوقاً مقدّسة لا بدّ من استيفائها . نحن نسامح بتواضعنا زلاّت الناس ، امّا البشاع العظيم فلا يسامح ولا يغفر لمن يتلفون كرومه ويرتعون زرعه . » فنظرت اليه الوالدة والدمع ينسكب على وجنتيها المتجعدتين بأيدي الشيخوخة ، ثم نزعت قلادة فضيّة من عنقها ووضعتها في يده قائلة : « ليس لديّ غير هذه القلادة يا أبتاه ، فهي عطيّة والدتي يوم اقتراني، فليقبلها الدير كفّارة عن ذنوب وحيدي . » فأخذ الرئيس القلادة ووضعها في جيبه ثم قال ووالدة يوحنا تقبّل يديه شكراً وامتناناً : « ويل لهذا الجيل ، فقد انعكست فيه آيات الكتاب وأصبح الابناء يأكلون الحصرم والآباء يضرسون . اذهبي ايتها المرأة الصالحة وصلّي من أجل ابنك المجنون لتشفيه السماء وتعيد اليه صوابه . »

وخرج يوحنا من أسره ومشى ببطء امام عجوله بجانب امه المنحنية على عصاها تحت اثقال السنين ، ولمّا بلغ الكوخ قاد العجول الى معالفها وجلس بسكينة قرب النافذة يتأمّل اضمحلال نور النهار ، وبعد هنيهة سمع والده يهمس في أذن امه هذه الكلمات : « كم عارضتني يا سارة عندما كنت

أقول لكِ ان ولدنا مختلّ الشعور ، والآن أراكِ لا تعترضين لان اعماله قد حقّقت كلامي ، ورئيس الدير الوقور قد قال لكِ اليوم ما قلته انا منذ سنين . »

وظلّ يوحنا ناظراً نحو المغرب حيث الغيوم المتلبدة متلوّنة بأشعة الشمس .

٢

جاء عيد الفصح وتبدّل الانقطاع عن المآكل بالاكثار من المشتهيات ، وكان قد تمّ بناء الهيكل الجديد المتعالي بين المساكن في مدينة بشري كصرح امير قائم بين أكواخ الرعايا . وكان القوم يترقبون قدوم احد الاساقفة ، لتكريسه وتقديس مذابحه ، ولمّا شعروا بدنوه خرجوا صفوفاً صفوفاً على الطريق وأدخلوه المدينة بين تهاليل الفتيان وتسابيح الكهنة وأصوات الصنوج وطنين الأجراس والنواقيس ، ولمّا ترجّل عن فرسه المزدانة بالسرج المزركش واللجام الفضّي ، قابله الأئمة والزعماء بمستطاب الكلام ، مترجمين به بالقصائد والأناشيد المصدّرة بالمديح والمذيّلة بالتبجيل ، حتى اذا ما بلغ الهيكل الجديد ارتدى الملابس الحبريّة الموشّاة بالذهب ولبس التاج المرصّع بالجواهر ، وتقلّد عصا الرعايا المنمّقة بالنقوش البديعة والحجارة الكريمة وطاف حول الهيكل منغّماً مع الكهنة الصلوات والتقاسيم ، وقد تصاعدت حوله روائح البخور الطيّبة ، وشعشعت الشموع الكثيرة ، وكان يوحنا في تلك الساعة واقفاً بين الرعاة والزارعين على رواق مرتفع

يتأمّل بعينيه الحزينتين هذا المشهد ، ويتنهّد بمرارة ويتأوّه بغصّات موجعة اذ يرى من الجهة الواحدة ملابس حريريّة مطرّزة وأواني ذهبيّة مرصّعة ، ومباخر ومشاعل فضيّة ثمينة ، ومن الأخرى جماعة من الفقراء والمساكين الذين اتوا من القرى والمزارع الصغيرة يشاهدون بهجة هذا الفصح والاحتفال بتكريس الكنيسة . من الجهة الواحدة عظمة ترتدي القطيفة والاطالس ، ومن الاخرى تعاسة تلتفّ بالأطمار البالية . ههنا فئة قويّة غنيّة تمثّل الدين بالتنغيم والتعزيم ، وهناك شعب ضعيف محتقر يفرح سرّاً بقيامة يسوع من بين الأموات ويصلّي بسكينة هامساً في مسامع الأثير تنهيدات حارة صادرة من أعماق القلوب الكسيرة . ههنا رؤساء وزعماء لهم من سلطتهم حياة أشبه شيء بأشجار السرو ذات الاخضرار الأبدي ، وهناك بؤساء وزارعون لهم من خضوعهم حياة تشابه سفينة ، ربّانها الموت وقد كسرت الأمواج دفّتها ، ومزّقت الرياح شراعها ، فأمست في هبوط وصعود ، بين غضب اللجة وهول العاصفة . ههنا الاستبداد القاسي ، وهناك الخضوع الأعمى . فأيهما كان مولداً للآخر ؟ هل الاستبداد شجرة قويّة لا تنبت في غير التربة المنخفضة ، ام هو الخضوع حقل مهجور لا تعيش فيه غير الاشواك ؟

بهذه التأملات الاليمة وهذه الافكار المعذّبة كان يوحنا مشغولاً وقد بكّل زنديه على صدره كأنّ حنجرته قد ضاقت عن أنفاسه فخاف ان يتمزّق صدره حناجر ومنافذ . حتى اذا ما انتهت حفلة التكريس وعمّ الشعب بالانصراف والتفرّق ، شعر بأنّ في الهواء روحاً تنتدبه واعظاً عنها ، وفي المجموع قوّة تحرّك روحه وتوقفه خطيباً امام السماء والأرض . أسر ارادته فتقدّم الى طرف الرواق ورفع عينيه وأشار بيده نحو العلاء ، وبصوت عظيم يستدعي المسامع ويستوقف النواظر صرخ قائلاً :

« انظر يا يسوع الناصري الجالس في قلب دائرة النور الأعلى . أنظر من وراء القبّة الزرقاء الى هذه الأرض التي لبست بالأمس من عناصرها رداء . أنظر ايها الحارث الامين ، فقد خنقت اشواك الوعر أعناق الزهور التي انعشت بذورها بعرق جبينك . أنظر ايها الراعي الصالح ، فقد نهشت مخالب الوحوش ضلوع الحمل الضعيف الذي حملته على منكبيك . أنظر فدماؤك الزكيّة قد غارت في بطن الارض ، ودموعك السخينة قد جفّت في قلوب البشر ، وأنفاسك الحارة قد تضعضعت امام رياح الصحراء، وأصبح هذا الحقل الذي قدّسته قدماك ساحة قتال تسحق فيها حوافر الاقوياء ضلوع المنطرحين ،

وتنتزع أكفّ الظالمين أرواح الضعفاء... ان صراخ البائسين المتصاعد من جوانب هذه الظلمة لا يسمعه الجالسون باسمك على العروش ، ونواح المحزونين لا تعيه آذان المتكلمين بتعاليمك فوق المنابر ، فالخراف التي بعثتها من اجل كلمة الحياة قد انقلبت كواسر تمزّق بأنيابها أجنحة الخراف التي ضممتها بذراعيك ، وكلمة الحياة التي انزلتها من صدر الله قد توارت في بطون الكتب وقام مقامها ضجيج مخيف ترتعد من هوله النفوس . لقد أقاموا يا يسوع لمجد أسمائهم كنائس ومعابد كسوها بالحرير المنسوج والذهب المذوّب ، وتركوا أجساد مختاريك الفقراء عارية في الأزقّة الباردة ، وملأوا الفضاء بدخان البخور ولهيب الشموع ، وتركوا بطون المؤمنين بألوهيتك خالية من الخبز ، وأفعموا الهواء بالتراتيل والتسابيح ، فلم يسمعوا نداء اليتامى وتنهيدات الارامل. تعالَ ثانية يا يسوع الحي واطرد باعة الدين من هياكلك، فقد جعلوها مغاور تتلوّى فيها أفاعي روغهم واحتيالهم . تعالَ وحاسب هؤلاء القياصرة ، فقد اغتصبوا من الضعفاء ما لهم وما لله . تعالَ وانظر الكرمة التي غرستها بيمينك ، فقد أكلت جذوعها الديدان ، وسحقت عناقيدها أقدام ابن السبيل . تعالَ وانظر الذين ائتمنتهم على السلام ، فقد انقسموا على ذواتهم وتخاصموا

وتحاربوا ، ولم تكن أشلاء حروبهم غير نفوسنا المحزونة وقلوبنا المضنكة . . . في أعيادهم واحتفالاتهم يرفعون أصواتهم بجسارة قائلين : المجد لله في العلى وعلى الارض السلام وبالناس المسرّة . فهل يتمجّد ابوك السماوي بأن تلفظ اسمه الشفاه الاثيمة والالسنة الكاذبة ؟ وهل على الارض سلام وأبناء الشقاء في الحقول يفنون قواهم امام وجه الشمس ليطعموا فم القوي ويملأوا جوف الظالم ؟ وهل بالناس مسرّة والبؤساء ينظرون بأعين كسيرة الى الموت نظرة المغلوب الى المنقذ ؟ ما هو السلام يا يسوع الحلو ؟ هل هو في أعين الاطفال المتكئين على صدور الامهات الجائعات في المنازل المظلمة الباردة ؟ ام في أجساد المعوزين النائمين على أسرّة حجرية يتمنون القوت الذي يرمي به قسس الدير الى خنازيرهم المسمّنة ولا يحصلون عليه ؟ ما هي المسرّة يا يسوع الجميل أبأن يشتري الامير بفضلات الفضة قوى الرجال وشرف النساء ، وبأن نسكت ونبقى عبيداً بالنفس والجسد لمن يدهشون أعيننا بلمعان ذهب اوسمتهم وبريق حجارتهم وأطالس ملابسهم ، أم بأن نصرخ متظلّمين منددين فيبعثوا الينا بأتباعهم حاملين علينا بسيوفهم وسنابك خيولهم فتنسحق أجساد نسائنا وصغارنا وتسكر الارض من مجاري دمائنا ؟ . . أمدد يدك يا يسوع

القوي وارحمنا لأن يد الظلوم قويّة علينا ، أو أرسل الموت ليقودنا الى القبور حيث ننام براحة مخفورين بظل صليبك الى ساعة مجيئك الثاني لأن الحياة ليست حياة عندنا ، بل هي ظلمة تتسابق فيها الأشباح الشرّيرة ، ووادٍ تدبُّ في جوانبه الثعابين المخيفة . ولا الايام أيام عندنا ، بل هي أسياف سنينة يخفيها الليل بين لحف مضاجعنا ويشهرها الصباح فوق رؤوسنا عندما تقودنا محبة البقاء الى الحقول . ترأف يا يسوع بهذه الجموع المنضمّة باسمك في يوم قيامتك من بين الاموات وارحم ذلهم وضعفهم . »

كان يوحنا يناجي السماء والشعب حوله بين مستحسن راضٍ ومستقبح غاضب . فهذا يصرخ : لم يقل غير الحق فهو يتكلّم عنّا أمام السماء لأننا مظلومون . وذا يقول : هو مسكون يتكلّم بلسان روحٍ شرّيرة . وذاك يقول : لم نسمع قط مثل هذا الهذيان من آبائنا وجدودنا ولا نريد ان نسمعه الآن . وآخر يهمس في أذن قريبه : أحسست بقشعريرة سحريّة تهزّ قلبي في داخلي عندما سمعت صوته ، فهو يتكلّم بقوّة غريبة . وغيره يجيب : نعم ولكن الرؤساء أعرَف منّا باحتياجاتنا فمن الخطإ أن نشك بهم .

وبينما هذه الاصوات تتصاعد من كل ناحية وتتآلف كهدير

الامواج ثم تضبع في الهواء، جاء أحد الكهنة وقبض على يوحنا وأسلمه للشرطة فقادوه الى دار الحاكم ، ولمّا استنطقوه لم يجب بكلمة لأنه تذكّر ان يسوع كان سكوتاً امام مضطهديه ، فأنزلوه الى سجن مظلم حيث نام بسكينة متكئاً على الحائط الحجري .

وفي صباح النهار التالي جاء والد يوحنا وشهد امام الحاكم بجنون وحيده قائلاً : « طالما سمعته يهذي في وحدته يا سيدي ، ويتكلّم عن أشياء غريبة لا حقيقة لها، فكم سهر الليالي مناجياً السكون بألفاظ مجهولة ، منادياً خيالات الظلمة بأصوات مخيفة تقارن تعازيم العرّافين المشعوذين . سل فتيان الحي يا سيدي فقد جالسوه وعرفوا انجذاب عاقلته الى عالم بعيد ، فكانوا يخاطبونه فلا يجيب ، وان تكلّم جاءت أقواله ملتبسة لا علاقة لها بأحاديثهم . سل أمه فهي أدرى الناس بانسلاخ نفسه عن المدارك الحسيّة ، فقد شاهدته مرّات ناظراً الى الأفق بعينين زجاجيّتين جامدتين وسمعته متكلّماً بشغف عن الأشجار والجداول والزهور والنجوم ، مثلما تتكلّم الأطفال عن صغائر الأمور . سل رهبان الدير فقد خاصمهم بالأمس محتقراً تنسّكهم وتعبّدهم ، كافراً بقداسة معيشتهم . وهو مجنون يا سيدي ، ولكنه شفوق عليّ وعلى أمه ، فهو يعولنا في

أيام الشيخوخة ويذرف عرق جبينه من أجل الحصول على حاجتنا ، فترأف به برأفتك بنا ، واغتفر جنونه باعتبارك حنو الوالدين . »

أفرج عن يوحنا ، وشاع في تلك النواحي جنونه ، فكان الفتيان يذكرونه ساخرين بأفواله ، والصبايا ينظرن اليه بأعين آسفة قائلات : للسماء شؤون غريبة في الانسان ، فهي قد جمعت في هذا الفتى بين جمال الوجه واختلال الشعور ، وقارنت بين أشعة عينيه اللطيفة وظلمة نفسه المريضة .

***

بين تلك المروج والروابي الموشّاة بالأعشاب والزهور ، كان يوحنا يجلس بقرب عجوله المنصرفة عن متاعب ابن آدم بطيب المرعى ، وينظر بعينين دامعتين نحو القرى والمزارع المنتثرة على كتفي الوادي مردّداً هذه الكلمات بتنهيدات عميقة — انتم كثار وأنا وحدي ، فقولوا عنّي ما شئتم ، وافعلوا بي ما أردتم ، فالذئاب تفترس النعجة في ظلمة الليل ، ولكن آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس .

فهرست

رماد الأجيال والنار الخالدة ٣

مرتا البانية ٢٠

يوحنا المجنون ٣٧

بلاغة العرب

في المهجر

أصدرت مكتبة صادر هذا الكتاب الحاوي مقالات بليغة لثلاثة من كبار أدبائنا قضوا الشطر الأكبر من حياتهم في المهجر وهم :

جبران خليل جبران . ميخائيل نعيمه . ايليا أبو ماضي .

كلمات جبران

أقوال مأثورة اختارتها مكتبة صادر لنابغتنا الكبير جبران خليل جبران ، وطبعتها طبعاً أنيقاً فجاءت طرفة من طرف الأدب العربي تطالع فيها آراءه في الحياة والناس .

اقتنوا

المجموعة الكاملة لمؤلفات

جبران خليل جبران

أصدرتها مكتبة صادر في ثلاثة أجزاء كبيرة مطبوعة على ورق أبيض صقيل تحتوي على المؤلفات التي كتبها باللغة العربية مع دراسة تحليلية للاستاذ ميخائيل نعيمه .

وستصدر قريباً ترجمة مؤلفات جبران التي وضعها بالانكليزية تحت اشراف الاستاذ نعيمه .

مؤلفات جبران خليل جبران

حبّاً بتسهيل اقتنـــاء مؤلفات جبران العربية القيّمة على الجمهور فقد طبعتها مكتبة صادر كل كتاب على حدة ، وهي التالية :

عرائس المروج

الأرواح المتمردة

الأجنحة المتكسرة

دمعة وابتسامة

المواكب

العواصف

البدائع والطرائف

مناهل الادب العربي

هي سلسلة فريدة من مختار الأدب العربي قديمه وحديثه . تتولى اصدارها تباعاً مكتبة صادر ، ويشرف عليها بعض كبار الأدباء المحققين ، فيتعهدونها بالدرس والتحليل ، والشرح والتدقيق والشكل ، على ما في الاختيار من عناية ظاهرة في انتقاء أجود ما جاء به الكاتب او الشاعر ، مهما بلغ عدد الأجزاء التي تستوعب آثاره ، بحيث أن من يقرأ مختاراته في المناهل يستغني بها عن الرجوع الى ديوانه او مصنفاته ، لأن هذه المجموعة لا تكتفي ، كغيرها ، بأن تعطي عن الأديب صورة مصغّرة لخصائصه وميزاته ، وانما تعنى بأن تظهره على حقيقته في أحسن انتاجه ، وأبقى آثاره ، فلا تهمل الا التافه والمبتذل ، وما لا تسمح بنشره الآداب الدينية والاخلاقية ، وما يستغنى عن كله بنشر شيء منه لأنه من قبيل المعاد والمكرور كما يظهر ذلك في أكثر قصائد المدح والرثاء والهجاء ، وفي ما يتردد من النوادر والأخبار المتشابهة ، وهي الى ذلك توجه المطالع والدارس الى تفهّم الكاتب والشاعر بما فيها من تنسيق فني للأبواب والأغراض ، ووسمها بالعناوين .

فإلى مناهل الأدب العربي، أيها الأديب والمتأدب، والقارىء المتذوق ، فإنها مكتبة شاملة جامعة ، قائمة بنفسها ، تزدان رفوفك بغلافها الملون المصور الجميل ، ويرتوي غليلك بمائها العذب الفياض ، والسهل المساغ ، لا تضيق بها خزانتك للطف حجمها ، وحسن منظرها ، ولا يضيق بها صدرك لأنها لا تجابهك بالغلط والتحريف والغموض ، بل تطالعك بكل لذيذ نافع طريف .

الاجزاء التي صدرت من هذه المجموعة حتى الآن

١٠٠	١	جبران خليل جبران
١٠٠	٢	ميخائيل نعيمه
١٠٠	٣	احمد فارس الشدياق
١٠٠	٤	ولي الدين يكن
١٠٠	٥	امين الريحاني
١٠٠	٦	ابو العلاء المعري — رسالة الغفران*
١٠٠	٧	ابو العلاء المعري — رسالة الغفران **
١٠٠	٨	ابو العلاء المعري — كتب مختلفة
١٠٠	٩	ابو العلاء المعري — اللزوميات *
١٠٠	١٠	ابو العلاء المعري — اللزوميات **

١٠٠	١١ بطرس البستاني
١٠٠	١٢ ابرهيم اليازجي *
١٠٠	١٣ ابرهيم اليازجي **
١٠٠	١٤ الشريف الرضي *
١٠٠	١٥ الشريف الرضي **
١٠٠	١٦ الشريف الرضي ***
١٠٠	١٧ كرم ملحم كرم
١٠٠	١٨ الموشحات الاندلسية *
١٠٠	١٩ الموشحات الاندلسية **
١٠٠	٢٠ الموشحات الاندلسية ***

الاجزاء المعدة للطبع وتصدر قريباً

١٠٠	ابن خلدون
١٠٠	الامام علي
١٠٠	نسيب عريضه

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

NYU - BOBST
31142 01474 3523
PJ7826.I2 A9 1949
¿Ara'is a